

الأدب في سبر أعظمه :

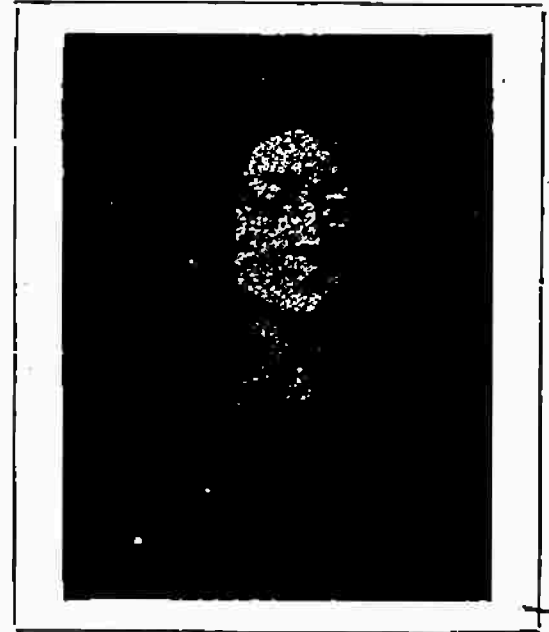
## ملتين...

[ الفئارة الخالدة التي غنت أروع

أناشيد الجمال والحرية والجمال ... ]

للأستاذ محمود الحفيف

- ٧ -



في هورتون :

على مسافة سبعة عشر ميلا من لندن كانت تقع قرية هورتون الصغيرة الجميلة ، حيث اشترى الموثق جون ملتن بعض الأرض وأقام بيتا لياوى إليه إذا اعتزل العمل وجنح للراحة .

وكانت هورتون قرية هادئة تحيط بها المروج والمراعى ، والحقول بين ضيقة محصورة وواسعة منبسطة ، والثابتات والجمالل عن نجين وشمال ، تترأى بينها على بعد أبراج وندسور ، تلك القلعة المالية القديمة ، فيتألف من مجموعها مجتلى ساحر جميل تستريح النفس لمرآه ، وبسمه البصر من أوله إلى منتهاه .

واتخذ ملتن طريقه إلى هورتون ، تاركا وراء ظهره الكلية ومن فيها من قلاء وظرفاء ، ومن أول الناطلة والمنبت من العراء ،

ومن المتبحرين بالعلم من الأغبياء ، مبتعدا عن دروسها ومناظراتها ، وقد نفى قدميه من تراها ويديه من كتبها .

وأوى الفتى إلى هورتون لا يقضى بين ربوعها أياما معدودات ثم يعود إلى لندن ، ولكن ليقم فيها سنين تطول أو تقصر حسبما يشاء ، فهو لا يتقيد في مقامه بشيء !

وما ذا عسى أن يصنع ملتن في تلك القرية ؟ وهل درس ما درس في الجامعة وحصل على درجتين من درجاتها ليركن إلى البطالة والدعة في ظلال الريف ؟ ليس هذا مما ألقه الناس ، ولا هو مما يجرى على سنن العقل ، وليس يقره عليه أحد ؛ بذلك كان يحدث الموثق نفسه ويحدثه أصحابه ، ويتناقله بينهم من يعرفونه من الناس !

ولكن الشاعر لا يأبه لما يقولون ، فقد عقد العزم بادی الرأي على رفض أية وظيفة في الحكومة ، كما رفض الالتحاق بالكنيسة ، وإن كان قد درس اللاهوت ؛ وليس يمتنيه أن يبين لهم وجهة نظره ، فأكبر الظن أنهم لن يقرؤه عليها ؛ وهل فيهم من يقره على إقامته في الريف ، حيث تكون له عزلة يستريح فيها من ضجيج المدينة ولهوها وزحمتها ليتفرغ للقراءة والدرس ، فيستدرك ما فوتت عليه قراءته الكلية من كتب ، ويستكمل ثقافته في الأغريقية واللاتينية ، فهما عدته فيما يتبها له من رسالة ؟ وهو إنما يزداد شعورا بأنه يتبها لرسالة ، وأن عليه أن يستريد من المعرفة والحكمة ليكون أهلا لما يستشرف له .

ذلك كان مأربه من إقامته في الريف ، فهمه في الحياة أبعد من كسب القوت وأجل من ذلك شأنا ، وما يرى العلم والحكمة بل والفضيلة نفسها إلا وسائل يتوسل بها إلى ما ينتهى من غاية ؛ وإنه لو اتق أن الناس ينكرون عليه ذلك ، وأنهم يمدونه حلما من الحلم يوسوس به الشباب في صدر شاعر سحره عن نفسه ، وأذهله عن الصواب حب الشعر ... وما ذا عسى أن يقولوا غير ذلك وليس فيهم من يصدق أن الشعر مطلب ترصد له الحياة ، وغاية يحقر في سبيلها المال والجاه !

وكان أبوه يطمع أن يلتحق الفتى بالكنيسة ، ولكنه منذ سفره لا يحب أن يجعله على ما لا يريد ، فحسبه أن يعنى بذلك نفسه ، على أنه كان خليقا أن يدرك بعد أمنيته من التحقيق ،

فهو أعلم الناس بآبائه ، وأخبرهم بنواذعه وآرائه .

كانت صفات ملتن تحول بينه وبين الكنيسة ، فإبائه وزوجه إلى الحرية لا يسمحان أن يتقيد بقيد ، ورغبته في التفرغ لقرائه والتهيؤ لمآلته يعتمدان به عن أن يشغل نفسه بغيرهما ؛ وإنه فضلا عن ذلك ليحس في نفسه الكراهة لرجال الدين ، ويشمئز قلبه إذا ذكرت عقيدة روما الكاثوليكية ، فهي عنده آلة التعصب وأصل تحكم القساوسة واستبدادهم وجودهم ؛ وهو فني يمشي الحرية الفكرية وحرية العمل ، ولا يستطيع أن يتصور كيف تحلو الحياة منهما وتسمى مع ذلك « حياة » ! ولا نجد ما يوضح رأيه في رفض الالتحاق بالكنيسة خيراً مما كتبه بعد ذلك ببضع سنين عن الكنيسة وأشار فيه إلى ما نحن بصددده قال : « أما عن الكنيسة التي أزمع إعدادي لخدمتها منذ طفولتي حتى بلغت مرحلة من مراحل نضجي ، فإني منذ رأيت مبلغ ما دخل فيها من طغيان ، وأن من يلتحق بها يجب أن يكون عبداً ، وأن يقسم على ذلك قوماً ، وجدت خيراً لي أن أفضل الصمت الذي ليس فيه ما يباب على الوظيفة الكلامية المقدسة التي تشتري بالقسم سلفاً ، وبالإبودية ، وتبدأ بهما ! »

ولم يكن ملتن حتى ذلك اليوم بيوريتاني المذهب ، وإن كانت عفته وطرهه وترفعه عن الدنيا تمثل خلق البيوريتانية ، وإن لم يقصد ؛ أما عن مذهبه الديني ، فكان حتى ذلك الوقت يتبع الكنيسة الإنجليزية الحرة ، دون أن يعنى بتحديد ما فيها يتعلق بقواعد مذهبها ؛ ولقد كان يكره من هذه الكنيسة ما كان يكرهه من كنيسة روما من التعصب لرأيها والرقابة على المذاهب الأخرى وعلى المطبوعات ؛ وأبغضت نفسه طريقة كبير أساقفتها (لود) في تعقبه مخالفه والتجسس عليهم ورفع أسمائهم إلى الملك ؛ وبعد ملتن في هذا الاتجاه كذلك أقرب إلى البيوريتانية في ناحية من نواحيها ، وإن لم يرم إلى ذلك .

وإن شخصاً هذه نظريته إلى الكنيسة ورجاها لخلق ألا يقبل مركزاً دينياً مهماً متى أبوه نفسه أن يقبل ، ومهما ألح عليه أصحابه أن يقبل !

أما القانون ، وقد كانت لحرقة أبيه صلة به ، فقد فكّر فيه عقب تركه الكلية ، ولكنه ما لبث أن انصرف عنه ؛ وأما

الوظيفة الحكومية ، فلم تكن أحب إلى نفسه من الوظيفة الكنسية ، وما ترتاح نفسه في الواقع ، ولا يتجه قلبه وعقله إلا إلى الشعر ، فلتسكن له من عرلاته في هورتون فرصة أجل بها وأعظم من فرصة يتهيا فيها لا يريد !

وعكف الفتى على محرابه في هورتون ، فإي يرحها إلى لندن إلا لئلا يشتري بعض الكتب ، أو يستمع إلى الموسيقى ، أو يستمين بمن يفهمه بعض مسائل الرياضة ، وألف حياة الريف واستروح نسيجه ، واستغرق في هدوئه نفسه ، واستمتع بصفائه حسه ، وتقلب في مشاهد بصره في بكره وآصاله وفي متوع نهاره ، وإذا كان غيره من الشعراء قد تنفى بحياة الريف ولم يره ، فلسوف يحيا ابن المدينة حياة الريف حقبة من عمره ، ثم يمسيها مسة العبقريه فيقنيها ويصور مشاهدتها ، ويضيف بذلك إلى أدب لفته ونفها ما تياهي به وتمت !

كان يقضى كثيراً من ساعات نهاره بين كتبه ، وكان يقوم الليل كدأبه منذ سن العاشرة ، وقد قوى جلده على القراءة واشتد صبره ، ويعجب القيمون في القرية من ذوى الثقافة من هذا الشاب الذي تخرج في الجامعة ، ولا يزال يكب على الكتب ليله ونهاره كأنما هو مقبل على امتحان !

أما أهل القرية فانهم لم يألوا أن يقيم بينهم إقامة متصلة شاب من هذا الطراز ؛ وقد ظنوا أول الأمر أنه لاغب يستجم ، أو زائر لن يلبث حتى يرح القرية إلى حيث يكون مقام أمثاله في المدينة ؛ وكانت ترمقه عيون فتیان القرية وسباياها في إعجاب ومحبة ؛ فهم حيال شاب عليه فوق رونق الشباب وغضارته روعة الجمال وسبب الوفاق والاحتشام ، وإنهم ليحسون في صوته عذوبة الموسيقى ، ويرون في عيانه إمارات النبيل والأريحية والكرم ؛ وما يطعم القرويات منه في أكثر من أن يربنه ويبرهن ، وإن كان له في كل قلب محبة ، وما عسى أن تنتظر سبايا القرية فوق ذلك من هذا الشاب الذي يتهامس بأنه تخرج في الجامعة وأنه من ذوى المحدث ؛ على أنه فضلا عن ذلك كان في شغل عنهن بمرائس شعره ! وإنه لأشد بالطبيعة ولوما ، يقلب في مشاهد بصره ، ولكم يرى في مجالى القرية مما يشرح صدره ويهز قلبه ؛ وكانت تعجبه الوجوه القرويات الوضاء لما توحيه سذاجتها من طهر ،

أن تتناول إلى الأمل في الخلود ، فسوف يكون لي من اسمك موضع لشعري .

وأكبر الظن أنه قد أصطلح بهذه القصيدة ما بينه وبين أبيه ، فلم يمد أبوه يشكو من إقامته في هورتون ، ولعل الرجل إنما صالح نفسه على هذا الوضع إذ لم يجد لشكاياه من جدوى ، ولم يهتد في إقناع ابنه إلى وسيلة .

وظفر ملتن بالهدوء في عزلته الريفية الجميلة ، واتفق له جو شعري ساحر ، ندر أن اتفق مثله لغيره من الشعراء في مسهل عهدهم بالشعر ، فما نعلم منهم إلا من لقي أول أمره عنثا وضيقا كثيرين ، وإنهم ليلتلون بالمذاب من الحياة ومن أنفسهم ، وما كان لينعم ملتن بما نعم به لولا زكاته أبيه وسماحة طبيعه وإدراكه قيمة الفن وإيمانه به .

ولكن عنثا آخر يهبط على الشاعر في عزله من صاحب لم يعرف اسمه ، فقد عثر فيما بعد بين أوراق ملتن في تلك الحقبة على ورقتين بهما سطور من رسالة كان يرد بها على كتاب صاحبه ، وقد جاء فيه أنه لا يرضى لملتن أن يقضى سنى عمره حالما في عزله شأن أنديميون مع القمر بينما يمضى الزمن مسرعا . ورد ملتن بأنه يقضى أرب نفسه من الثقافة والمعرفة ليكون أرفع مما هو قدرا ، ولولا أنه يؤمن بهذا الذي يأخذ نفسه به في غير رفق لما وقف مصمما في وجه كثير من غرور الحياة كالطموح إلى المنصب والرغبة في جمع المال ، والليل إلى البناء بزوجة وتكوين أسرة ، والإقامة في مسكن خاص . ويرسل ملتن إلى صاحبه تلك القصيدة التي نظمها وهو في الجامعة واستغل فيها ثمار جهوده ليدرا بها عن نفسه تهمة التبعطل والجحول .

وأقبل ملتن على القراءة إقبالا عظيما ؛ وكان أكثرهم منصرفا إلى الشعر في أشهر آداب الأمم ، وعلى الأخص الأغريق والرومان ، واطلع إلى جانب ذلك على الأدب الفرنسي والأدب الإيطالي ، وقرأ الفلسفة القديمة وبخاصة أفلاطون ، وفلسفة العصور الوسطى كما قرأ التاريخ يستخرج منه الحكمة والمبرة ؛ وعنى بمصر شكسبير عنابته بمصر بركليس ، فكان أكثر وقته مغمصا لها وأحب هوميروس وثرجيل وأوفيد ودانتي حبا لا يضارعه إلا حبه لشكسبير وسبنسر ، وكان ولله عظيم بما استحدث في العصر

كما كان يطرب لأغاني الرعاة ويحس ما فيها من الممانى والأخيلة والصور القروية ، التي يراها الآن تتصل بنفسه صلة قوية بتأثير بيئته الجديدة ؛ وتثبت تلك الأغاني ما كن في ذاكرته من أشعار أوفيد وألخان سبنسر مما يتصل بالحياة القروية فيرجع إليها ويعيد في هذا الجو قراءتها فيستشمر من جمالها ويستيقن من معانيها أكثر مما اتفق له من قبل ؛ وهكذا يعيش عيشة الريف ويقرا أدب الريف ، فيكون لذلك أثره العميق في خياله وحسه ، ولا يلبث أن تتضح صبغته في فنه !

ولكن الموفق الشيخ وقد ركن إلى الراحة في القرية لا يزال يأمل أن يراجع ابنه نفسه فيرضى بوظيفة من الوظائف ، فإنه ما يرى حياته هذه إلا ضربا من البطالة لا يسيغها عقله ولا يحبها لابنه ، ويدب الرجل على الشكوى إلى جيرانه ويصل نبأ شكواه إلى ابنه فتكدر خاطره حيناً ، لأنه يكره أن يقضب أباه ويكره في الوقت نفسه أن ينصرف عما يتهيا له من رسالة تهجس بها نفسه .

ويرد الفتى على أبيه بقصيدة لاتينية جميلة فيتوسل إليه أن يدعه فيها هو فيه ، ويرجو منه ألا يحتقر الشعر ويتساءل كيف يدهش أبوه وهو الموسيقى النابه من أن يكون ابنه شاعرا ؟ لقد قسم أبولو إله الموسيقى والشعر موهبته بين الأب وابنه ؛ والموسيقى والشعر صنوان ، والشعر أقوى مواهب الإنسان دلالة على قداسة عنصره ؛ وإنما يتظاهر الأب بحسب بأنه يكره الشعر . ويحتقر الشاعر في قصيدته الثراء والمادة مما يدل على أن أباه قد أشار إلى رغبته في أن يعمل على كسبهما ويستطرد موجها الخطاب إلى أبيه فيقول : « يا أبت لقد عودتني منذ الصغر أن أطلب المعرفة من أجل المعرفة فكيف تطلب إلي أن أحفل بالمال ، وأنت دون الناس جميعا من لا يخلق ذلك به . يا أبت إن الوالد الذي لا يقتصر على أن يعلم ابنه اللاتينية فيعلمه بها الأغريقية والعبرية والفرنسية والطليانية والفلك وعلوم الطبيعة ، لا يسأله أن يجمل كسب المال غرضه من الحياة . يا أبت إنى اخترت ما هو خير بذلك وكان بوحيك ما اخترت . وإنى أعلم أنك تفر ذلك بقلبك وتشاطرني الرأي فيه . وعلى هذا فادمت أيها الوالد العزيز لا أستطيع أن أقابل جميلك بمثله ، فاني أرجو أن تكتفى منى بالاعتراف به وبقائه أبدا في ذاكرتي ؛ وإذا كان لأشمارى الفنية

## الدوس هكسلي

( بقية المنشور على صفحة ٣٨٢ )

من حقائق الصراع الانساني إلى عزلة عالم الأفكار المبهمة . وأبحانه الحاضرة في التصوف والفلسفة الدينية تمثل عودة إلى تفضيله التأصل هذا للحياة الباطنة ، هذا التفضيل الذي ظل كينا زمننا ما إذا حكمنا بكتاباته اللاأدرية التي نشرها في العقد الثالث من القرن العشرين ، وهو الزمن الذي تصادف أن كان زمن مادية وكلبية عامة في إنكلترة .

وقد ظل هكسلي عدة سنوات تحت التأثير الشخصي الشديد للروائي د . ه . لورنس ، مؤلف Sons and Lovers وغيرها من الروايات الفذة . وقد تعابلا أول مرة في سنة ١٩١٥ ، ولكنهما لم يكترا من رؤية أحدهما الآخر حتى السنوات من ١٩٢٦ إلى سنة وفاة لورنس . وقد كتب هكسلي في سنة ١٩٢٧ قائلا : « إن لورنس من الأفراد القلائل الذين أشعر بحوم بتقدير وإعجاب حقيق . فالأشخاص البارزون الآخرون الذين قابلتهم أشعر بأنني على أية حال أنتى إلى نفس الجنس الذي ينتمون إليه . أما هذا الرجل فإن به شيئا مختلفا ، وهو شيء أسنى في النوع لا في القدر » .

وفي سنة ١٩١٩ تزوج هكسلي بماريا نايز ، وهي بلجيكية ؛ وله ابن واحد . وقد قضى قسما كبيرا من حياته خارج إنكلترة ؛ عاش في فرنسا وإيطاليا وقام بأسفار واسعة في الهند وبورما ( التي كتب عنها وصفا ممتعا في Jestig Pilate سنة ١٩٢٦ ) ، وفي المكسيك وغواتمالا وهندوراس وجزائر الهند الغربية ( اقرأ كتابه Beyond the Moxique Bay سنة ١٩٣٤ ) . وهو منذ قبيل الحرب التي وضمت اليوم أوزارها يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة في كاليفورنيا .

وهكسلي في مظهره إنكليزي صميم ، فهو طويل القامة رمادي العين ، وشعره الكثيف مرتب إلى الوراء من الجبهة . وهو ذو أدب جذاب ساحر . والمرء في حضرفته يلاحظ أولا صوته الجميل ويديه الطويلتين اللينتين ، وهو مشغوف بمقدما حول ركبته حين يجلس ويتحدث . وبين آن وآخر يكتسى فيه ابتسامة هادئة نهكية ، ولكنها في العادة ذات مسحة حزينة .

( عن مجلة الأدب والفن الانجليزية ) اسكندر هنرر سور

الأليزابيثي من صور البيان ، وما تولد فيه من مشرق اللفظ وبديعه ، وما افنته المقتنون أنماه من أساليب الوصف والفناء ؛ وأعانه على استيعاب ذلك سليقة فنية خالصة ، وروح إلى الفن وجماله متمطشة ، وعبقرية طامحة توحى إليه أن يجرى في مضار هؤلاء العباقرة الأفاضل وألا يتخلف عنهم في شيء .

أما عن أدب عصره فالأرجح أنه قليلا ما كان يتناول بعض آثار ذلك العصر ، لأنه قليل الإشارة إليها فيما كتب قليل التأثير بها ، ولعل مراد ذلك إلى أنه حصر ثقته في الروائع السالفة من أدب العالم ، ولم يجد ما يكافئها إلا آثار شكسبير وأفذاذ عصره . ولم يك يقرأ ملتن قراءة مجلان لا يقع على مطلب حتى يطير عنه إلى غيره ، وإنما كان يقرأ قراءة المتثبت المتقصى ، الذي يميل فكره ويقدح ذهنه في غير ملل أو نصب ؛ يتسكى على نفسه حتى ينفذ إلى أعماق ما يقرأ ، ولن يبرح ينشره ويطويه ويقلبه على أوجه الرأي جيما حتى يطمئن إليه ، ويقضى في أمره بالقبول أو بالرفض . ولقد عثر سنة ١٨٧٤ على كراسة من مخلفات ملتن بها ملاحظات واقتباسات من نحو ثمانين مؤلفا دونها أثناء قراءته ومنها يقف المرء على مثال لكده وصبره على عناء الدرس .

على هذا النحو قضى ملتن ست سنوات في هورتون ؛ وما نظن أن شاعرا قبله أو بعده اتسع أفق ثقافته أكثر مما اتسع أفقه ، وما نظن أن أحدا من الناس شاعرا كان أو غير شاعر قد أعد نفسه لما يريد من أمر بما هو أقوى مما أعد به هذا الفتى للشمر نفسه وكان يزور المدينة أحيانا فلا تقره حياتها عما وطن عليه النفس من الجد ، وأقصى ما كان يقضيه فيها إذا حل بها بضمة أسابيع ، ولكن ذلك كان نادرا فان معظم إقاماته بها كانت لا تمدو بضمة أيام ؛ وكان في المدينة يسمى إلى حيث يستمع الموسيقى ، كما كان يفتنى المسارح ويزور عليه القوم ، ويمتع ناظره بما يرى من جمال الحياة ، ولكنه يملك زمام نفسه ، ويسيطر عليها سيطرة قوية تامة قل أن توافي مثلها لغيره في سن كسنته ، فإذا قضى أرب مشاعره من الجمال ، وأرب جسده من الراحة ، واشترى ما تتطلب دراسته من كتب عاد إلى هورتون فأقبل على أوراقه وكتبه .

( ينبع ) الحقيق